

لماذا تبنى الخليفة المأمون أفكار الاعتزال والتشيّع

د. محمّد عثمان أبو ساق

أستاذ مشارك – قسم العلوم السياسية – كلية الاقتصاد – جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الخرطوم – قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

Abstract

This article attempts to answer the question : Why the caliph Al Mammon adopted Mud ، twilight and Shiite views ?

professor Soured argued that ALM'amun wanted to reconcile Alid. Pretenders in order to neutralize Shi'ite revolutionaries ; but in spit of his strong argument I do not think that National Reconciliation was a priority policy for ALM'amun.

I rather feel that by the adoption of the createdness of the Qura'n official doctrine and the imposition of the Mihna in Baghdad and the provinces , he wanted to enhance his absolute power as Imam over and against the leaders of the Religious Institutions and the Arab dignitaries of Baghdad .My argument is supported by his attempt to reduce the Religious Institutions to political control so that he could legitimize and prohibit as an Imam without any challenge or opposition from the religious circles .

كان المأمون خليفة مثيراً للجدل فقد أدخل العراق في حرب أهلية وتسبب في صراعات سياسية عندما اختار علوياً ولياً للعهد. وعندما فرض محنة خلق القرآن أكبر فتنة دينية في الإسلام. هل كان المأمون متخبطاً عندما اتخذ سياسات خطيرة ما لبث أن ورطته في نتائج وخيمة أم أنه كان مجددا باتخاذه سياسات جريئة بهدف المصالحة بين العباسيين والشيعة ؟.

لقد كان الموقف خطيراً جداً واستدعى المعالجة بحكمة إذ إن سكوت الخليفة المأمون على هيمنة وزيره الفضل بن سهل قد أفسد عليه الأوضاع في بغداد حتى ظن الناس أن دولة العباسيين قد انتهت وتطاولوا عليهم ونكلوا بهم ، وأشاعوا أن المأمون أرسل الحسن بن سهل والياً على بغداد لتكون تابعة لخراسان ، وربما تعمد الخليفة المأمون أن يتشدد مع أهل بغداد لمعارضتهم له. فقد تباطأ في نقل الخلافة من خراسان إلى بغداد مع انتصاره على الأمين وقد قتل. وكاد أمر الخلافة أن يفلت من يد المأمون وقد تنازعها العلويون وإبراهيم بن المهدي ، وخرج من العلويين من خرج واستبد منهم بالحكم من كان واليا على بعض الأمصار. ونشطت عصابات اللصوص والصعاليك والشطار في النهب والسلب في وضح النهار.

كان هرثمة بن أعين قد نبه إلى خطورة الموقف إلا أن الخليفة المأمون قد صدق سعاية الفضل بن سهل وأنصاره ضده وعنفه وقتله. لعل موت هرثمة بن أعين قد زاد الفتنة والقلاقل في بغداد ، إذ ثارت الجند في وجه الحسن بن سهل وطرد من مدينة بغداد ، وشرط عليه الجند دفع رواتبهم عن ستة أشهر مقدما زائدا معاشاتهم وأرزاقهم. كما تعقدت الأمور بإسناد المأمون ولاية العهد لعلي الرضا ، وخلعه للسواد شعار العباسيين. كما نشب القتال بين جنود المأمون وجنود إبراهيم ابن المهدي.

أخيراً تنبه المأمون لخطورة وحرج الموقف فعجل بالعودة إلى بغداد.[١] وعندما وصل موكبه إلى سرخس وجد الفضل بن سهل قتيلا في الحمام.[٢] وتوفي علي الرضا بعد ذلك

---

(١) انظر تطورات هذه الأحداث في : أحمد فريد رفاعي ، عصر المأمون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، ج ١ الصفحات ٢٠٦ الى ٢١٣.

(٢) نفسه ، ص ٢١٢.

بقليل. قيل دس له المأمون السم في العنب.[٣] ربما أثارت هذه التطورات فكرة المصالحة عند الأستاذ دومنيك سوردل كما سنرى بعد قليل. لكن لابد من الإجابة على السؤال لماذا تبنى المأمون أفكار الاعتزال والتشيع ونصب نفسه كنزا للعلوم ووصيا على الإسلام والمسلمين ؟.

الواضح أن المأمون ورث مشاكل وتحديات كبيرة من العهود السابقة لحكمة ؛ إذ إن ولاية والده هارون الرشيد كانت حافلة بالصراعات السياسية التي تطورت وتعقدت أثناء وزارة البرامكة حتى تسببت في نكبتهم. وإذا رجعنا إلى الوراء نجد أن الخليفة المنصور قد تصادم مع قادة الثورة العباسية والهاشميين من آل البيت وأبناء عمومته العلويين ، وكان متشددا في جانب المعتقدات. بل حاول إرساء دعائم حكم جديد بعد أن قام بتغيير موازين القوى الاجتماعية والسياسية. كما أن ابنه محمداً لما فشل في مصالحة العلويين واختلف معهم ادعى أنه المهدي ليقطع الطريق عليهم ، وأدخل الناس في جدل وخصومات المفاضلة بين العلويين والعباسيين. بل ذهب إلى مدى أبعد من إجراءات والده المنصور عندما أطلق سراح السجناء السياسيين ، وقرب العثمانيين ، وتزوج منهم رقية بنت عمرو العثمانية ، واختار خمسمائة من أهلها حرسا خاصا وأنصارا له بالعراق.[٤]

يهمنا هنا تشدد العباسيين منذ المنصور وابنه المهدي في أمر المعتقدات الدينية ، والمقالات الإسلامية ، وأخذهم من عرفوا بالزنادقة وأهل الأهواء والبدع بصرامة وعنف. وهنا نذكر أن القاضي أبا يوسف كان قد حرض الخليفة هارون الرشيد ضد المعتزلة والشيعة باعتبارهم قادة لحركة الكلام والجدل في الدين وطالبه بالتشدد معهم.[٥] وهنا نجد أن الخليفة الرشيد قد طارد المتكلمين في خلق القرآن وتشدد مع العلويين المتطلعين إلى

(٣) أحمد فريد رفاعي ، عصر المأمون ، ص ٢١٢-٢١٣.
(٤) ابن كثير ، أبو الفداء ، البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦ م ج ١٠ / ص ١٣٢.
(٥) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢هـ ، ص ٧٢-٧٣.

السلطة. كما اتخذ إجراءات صارمة ضد المسيحيين وسجن جماعة من قادة المعتزلة في نهاية خلافته.[٦]

كما أن الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون قد وسعت من دائرة العنف والمواجهة بين السياسيين والعلماء وعامة الجماهير حتى تطور موقفان مع تصاعد الصراع : موقف سني يناصر الأمين بقيادة العرب وعلماء الحديث وجماهير بغداد بشكل عام ، وموقف معارض يتزعمه الفضل ابن سهل وزير المأمون الذي استعدى العرب وأهل بغداد وتشدد في معاملتهم بعد أن انتصر على الخليفة الأمين وقتله حتى اتهمه الرأي العام في بغداد بالتطلع إلى السلطة ، واعتبره مسئولاً عن اتخاذ المأمون سياسات موالية للعلويين وتبنيه علوياً ولياً للعهد.

كان صوت المعتزلة قد خفت في خلافة هارون الرشيد والأمين وإبراهيم بن المهدي. كما نذكر هجوم الشافعي ويزيد بن هارون على بشر المريسي عمدة المعتزلة وشيخهم وإثارة جماهير بغداد ضده حتى امتحن في خلق القرآن في جامع الرصافة في عام ٢٠٣ هـ /٨١٨م.[٧] كما نسمع في نفس الفترة أن قاضيا في مصر رفض شهادة أحد المعتزلة بحجة أنه قدري.[٨]

وفي المقابل نجد أن نفس المدة التي شهدت قمع المعتزلة في مصر والعاصمة بغداد قد شهدت تقريب المأمون لهم وازدهارهم في خراسان واصطحابهم معه إلى بغداد حيث رفع من شأنهم ونصب شيخهم أحمد بن أبي داؤود تلميذ واصل بن عطاء وأحد دعاة مذهبه قاضياً للقضاة.

ويؤكد ابن النديم علاقة المأمون بالمعتزلة ويعده كالتلميذ لأبي الهذيل العلاف ، كما حكي عن يحيى بن اكثم أن المأمون كان إذا دخل عليه هشام بن عمرو الشيباني تحرك حتى يكاد يقوم له. ويشير المسعودي إلى أن المأمون استدعى أبا الهذيل العلاف ومعه

(٦) ابن المرتضي ، احمد بن يحيي ، كتاب طبقات المعتزلة ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ ،١٩٦١ م ، ص ٥٤-٥٩.

(٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ، ١٩٣١ م ، ج ٧ / ص ٦٣.

(٨) الكندي ، أبو عمر ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ، ١٩٠٨ م ، ص ٤٢٢.

النّظّام في عام ٢٠٤هـ / ٨١٩ م وربط له سنويا ستين ألف درهم يفرقها على أصحابه.[٩] كما أراد المأمون ثمامة بن أشرس للوزارة بعد مقتل الفضل بن سهل إلا أن ثمامة اعتذر وأشار إليه بأحمد بن أبي خالد الأحول.[١٠] لقد جالس المأمون أهل الكلام وقرب منهم بشر المريسي وثمامة بن أشرس وشجعهم على الكلام في عام ٢٠٩ هـ /٨٢٤ م. هنا نتساءل : لماذا تبنى المأمون أفكار الاعتزال والتشيع وقرب دعاتهم في حين تشدد أسلافه معهم وقاموا بضربهم وقمعهم ؟

ربما أفاد النظر في الصراعات السياسية والدينية التي ورثها المأمون من أسلافه في تفهم سياساته. لقد طفى الصراع السياسي بين الخليفة الرشيد ووزرائه وأعوانه إلى السطح في شكل خلافات وتضارب في القرارات والسياسات وعدم الانسجام بينه وبينهم خاصة بالنسبة لتشدده ضد العلويين. ففي حين كان وزراؤه البرامكة يجهدون أنفسهم في التوصل إلى حلول سياسية واتفاق مع رموز الشيعة كان الخليفة الرشيد يعرقل هذه المساعي وينقض العهود والمواثيق التي يبرمونها. يظهر ذلك بوضوح في خلافة مع الفضل بن يحيي البرمكي عندما نجح الفضل في عقد مصالحة مع يحيي بن عبد الله الذي ثار في الديلم وأقنعه بقبول أمان من الخليفة وأتى به إلى العاصمة بغداد ، وما لبث الخليفة الرشيد أن نقض هذا الأمان وحبس يحيي حتى مات في السجن.[١١]

ويبدو أن الخلافات بين الخليفة الرشيد وأعوانه قد تطورت مع مرور الزمن إذ حبس يحيى بن عبد الله عند جعفر بن يحيى إلا أن جعفراً أطلقه.[١٢] ، ونسمع بعد ذلك أن الفضل بن يحيى شجع العلويين على الخروج إلى خراسان ؛ الأمر الذي أثار شكوك الخليفة ضده حتى عزله من منصب الحاكم للولايات الشرقية. كما أن الفضل بن يحيى

---

(٩) ابن المرتضي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦١.

(١٠) ابن النديم ، الفهرست ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ص ٢٠٦.

(١١) ابن تغري بردي ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٣٣٨ هـ / ١٩٦٣ م ج ٢ ، ص ١٨٧.

(١٢) الخطيب ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٦٩.

رفض بعد عزله التخلص من موسى الكاظم حتى سبه الرشيد علنا في الرقة وانتهى الأمر به إلى إضعاف دوره في البلاط.[١٣]

هنالك تقارير تفيد أن الفضل بن يحيي أظهر تعاطفاً مع محمد بن طباطبا العلوي.[١٤] وأن يحيى بن جعفر البرمكي أظهر تأييده لأحمد بن عيسى الزيدي.[١٥]

لقد ورث المأمون هذه النزاعات واضطر إلى ان يتعامل معها سياسياً ودينياً. إذا افترضنا أن النصائح التي قدمها الوزراء لهارون الرشيد والتي لم ترق له كانت ترمي إلى التوفيق وكسب المعارضة بهدف تقوية النظام العباسي وليس التآمر ضده. فهل هذا الافتراض يفسر لنا سياسات المأمون إزاء الشيعة ؟ هذا الطرح يفترض أن المأمون على عكس والده هارون الرشيد كان قد تفهم الأثر الايجابي لنصائح وسياسات البرامكة وكان على استعداد للأخذ بها وتبنيها. إننا نعرف حاجة المأمون إلى المساندة بعد أن استعدى أهل الحديث وزعماء العرب. كما نعرف قدراته على استيعاب المقالات الإسلامية والمجادلات الفلسفية التي أثارتها سياساته الدينية. لقد عرف ولع المأمون بالجدل العقائدي والفسلفي واهتمامه بالقضايا الفكرية والعقائدية وبحركة الترجمة والنسخ ، وقد طور وشجع هذه الاتجاهات باهتمام شديد.

عليه نستطيع أن نتساءل هل يمثل قبول الخليفة المأمون نصائح وسياسات البرامكة وربيبهم الفضل بن سهل محاولة جادة للمصالحة مع الشيعة ؟ لقد طرح هذا التساؤل المستشرق الفرنسي دومنيك سوردل وحاول الرد عليه بالإيجاب[١٦] ؛ إذ إن الخليفة المأمون نتيجة تشبعه بأفكار الاعتزال والتشيع قد بدا بالفعل يتخذ قرارات سياسية متأثراً بها. لقد تبنى علوياً من آل البيت هو على الرضا ولياً للعهد وزوجه ابنته في مصاهرة سياسية واضحة. كما اختار اللون الأخضر بديلاً للسواد شعار العباسيين وهو خيار وسط مختلف

(١٣) ابن المرتضي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤.

(١٤) الطبري ، ابن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٨٧٩ – ١٨٨٠ م ، ج ٧ ، ص ١٩٧٨.

(١٥) انظر البرامكة في الدراسة Sourdel, D. La Vizirat abbaside Damas, ١٩٥٩, pp ١٦٤ -١٦٥

(١٦) Sourdel , D, La politique Religieuse Du Calife Abbaside al Ma'mun , Revue Des Etudes Islamique , XXX , ١٩٦٣ PP ٢٧-٤٧ .

عن اللون الأبيض شعار الشيعة. كما انه اختار على الرضا على أساس قدراته الذاتية وأخضعه لتأييد المسلمين أو البيعة بحيث لا تعد هذه الخطوة نقلا للسلطة إلى العلويين أو تفويضا لعلي الرضا لتعيين ولي العهد من بعده بل تبدو محاولة توفيق ومصالحة سياسية.(١٧)

مع تفهمنا للحجج التي أوردها الأستاذ دومنيك سوردل إلا أننا نرى أن المصالحة لم تكن غاية في حد ذاتها إذ إن تغيير المأمون لهذه الخطط عندما دخل بغداد وتعرض لضغوط العباسيين يشير إلى سرعة تراجعه ، بل يثير علامات استفهام حول الطريقة التي تخلص بها من وزيره الفضل بن سهل وعلي الرضا نفسه كأنه لم يكن منذ البداية مركزاً على فكرة المصالحة كغاية في حد ذاتها.

كما تخلى عن الوصية وخلع الخضرة ولبس السواد من جديد وقال لأهل بغداد : " **إنما نقمتم علي بسببه وقد مات** ".(١٨) يعني على الرضا. هذا التراجع يدل على أن الاجتهادات التي جاءت بناءً على نصائح الوزراء والأعوان للمصالحة مع المعارضة الشيعية لم تكن للمصالحة في حد ذاتها.

عليه سأحاول أن أركز على مداخل أخرى لهذا الخط البحثي غير المصالحة. ربما كان الأمثل أن ننظر إلى تبنى المأمون لأفكار الاعتزال والتشيع مع سياساته حول طبيعة القرآن والمحنة باعتبارها قضايا متداخلة ومترابطة في محاولة لفهم أهدافه ومراميه الحقيقية عندما تبنى أفكار الاعتزال والتشيع.

مغزى ودلالات التشيّع :

أود في هذه المرحلة أن أنتقل من التساؤلات عن سياسات المصالحة إلى التركيز على أهداف وغايات التشيع. يستطيع الدارس لحركات الشيعة في هذه الفترة أن يخلص إلى أنها لم تتسم بالتشدد ، ولم يكن التشيع تنظيماً سياسياً يهدف إلى استلام السلطة بل لم

---

(١٧) .Sourdel , D, La politique Religieuse Du Calife Abbaside al Ma'mun ٢٧-٤٧,

(١٨) المسعودي ، ابو الحسن على بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق مينارد ، باريس ، ١٨٦١-١٨٧٧ م ، ج ٧ ص ٥٥.

يكن وقفاً على السادة العلويين. إذن ما هي طبيعة التشيع وغاياته ومراميه في هذه الفترة ؟.

يلاحظ الدارس للتشيع أنه كان مطروحاً في مبادئ وأحكام فقهيه في مجالس مختلف العلماء وأهل الرأي من المعتزلة وغير المعتزلة. كما أن التشيع بهذا المعنى الفقهي لم يكن وقفاً على الأئمة من علماء الشيعة كجعفر الصادق بل كان شائعاً بين فقهاء وعلماء سنّيين من دائرة أصحاب الحديث والأثر مثل عبد الرزاق الصنعاني أستاذ الأمام أحمد بن حنبل ، والمحدّث على المديني الذي كان يظهر التشيع عنْدما يكون في الكوفة ، والإرجاء عندما يكون في بغداد.[١٩] وأبو نعيم الفضل بين دكين الذي امتحنه الخليفة المأمون في خلق القرآن في الكوفة في عام ٢١٢هـ/٨٢٧م ، ويقول ابن الأثير: إنه كان يتشيع وله أتباع عرفوا بالدكينية.[٢٠] كما اشتهر بالتشيع المحدث أبو غسان مالك بن إسماعيل الذي ظهر في مطلع القرن الثالث الهجري[٢١] ، وكثيرون غير هؤلاء.

ماذا يعنى هذا التعاطي للتشيع بواسطة أهل السنة وغيرهم من العلماء ؟ لاحظنا أن قيمة التشيع تكمن في المفاهيم العقائدية والأحكام الشرعية والفقهية التي يطرحها كنظريات للإمامة وليس موقفاً سياسياً حزبياً كما قد يتبادر إلى الذهن. هنا نجد أن نظرية الإمامة في الفكر الإسلامي تقوم على الدعوة إلى تقوية الخلافة وتركيز السلطات في شخص الحاكم العادل. كما أن الفكرة السائدة في الإمامة في ذاك الزمن أنها متعلقة بآل البيت من الهاشميين بشكل عام وليست قاصرة على نسل علي بن أبى طالب من فاطمة الزهراء فحسب.[٢٢]

يحضرنا هنا مثال محمد بن الحنفية ، وهناك من يرى أن الإمامة انتقلت من بعده إلى ابنه أبى هاشم الذي أوصى بها للعباسيين ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهاشمية. كما أن

(١٩) ابن حجر ، أحمد بن علي ـ تهذيب التهذيب ، حيدر اباد ، ١٣٢٥ هـ ، ج ٧ ، ص ٣٥٣.

(٢٠) ابن الاثير ، أبو الحسن ، الكامل في التاريخ ، تحقيق نورنبيرج ، ١٨٦٢-١٧٨٤ ، ص ٣١٤.

(٢١) الخطيب ، مصدر سبق ذكره ، ج ٧ ، ص ٣٥١.

(٢٢) جاء عدم حصر الإمامة في على وذريته نتيجة لقبول اختيار الرضا من آل محمد ، الجابري ، محمد عابد ، العقل السياسي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٨٢.

العباسيين ادعوا في مرحلة تالية أن الإمامة كانت أصلاً في جدهم العباس عم النبي وانتقلت منه إليهم مباشرة. هكذا تبدو أبواب الإمامة مشرعة أمام كل الهاشميين الأمر الذي مهد لاستغلالها بواسطة العباسيين لكسب تأييد الناس لهم.[٢٣]

الملاحظ أن المغامرين والمتطلعين إلى السلطة والحكم بالوكالة نيابة عن الأئمة الغائبين والمستترين قد عرفوا أهمية هذه المفاهيم في إشباع تطلعاتهم إلى السلطة وكسب تأييد الجماهير لهم. لعل خير مثال لذلك هو ظهور المختار بن عبيد الله الثقفي كنائب لمحمد بن الحنفية[٢٤] وبيان بن سمعان[٢٥] وأبى السرايا الذي قيل إنه دس السم لابن طباطبا العلوي ليستفيد من غيبته.[٢٦] كان المختار يعمل للإمام المعروف بالرضا من آل محمد. ويقال إن المأمون استبقه بتسمية ولى عهده على الرضا. ويشاع أن المعتزلة استغلوا أفكار الإمامة للدعوة للعباسيين. بل إن أبا مسلم الخرساني استغل المفاهيم الشيعية ونظرية الإمامة في دعوته للثورة العباسية ضد الأمويين.[٢٧]

وإذا ركزنا على مواقف الخلفاء العباسيين نجد أنهم تبنوا فكرة الإمامة نيابة عن محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم. كما حرصوا على فتح باب الإمامة على مصراعيه عندما احتجوا بأن الإمام هو الذي يتم اختياره من آل محمد حتى لا تكون الإمامة وقفاً على العلويين دون غيرهم من الاشراف.

والملاحظ أن الخلفاء العباسيين تسموا بأمراء المؤمنين وركزوا على دور الدين في الدولة والسياسة بطريقة لم تكن معهودة في خلافة بني أمية. وتبدو هذه الصورة واضحة

---

(٢٣) انظر تطور هذه النظرية بدءاً بأبي العباس السفاح ثم الخليفة المنصور في الطبري، مصدر سبق ذكره، ج ٢ ص ٥٣٥ و ٤٣١.

(٢٤) عن علاقة المختار بمحمدابن الحنفية، انظر الجابري، مصدر سبق ذكره، صفحات ٢٨٣-٢٨٥.

(٢٥) عن بيان بن سمعان كأحد الغلاة -انظر البغدادي، الفرق بين الفرق، بيروت، ١٩٧٣ ص ٢٢٩. والرفاعي، عصر المامون، مصدر سبق ذكره،

(٢٦) عن أبي السرايا، انظر الشهرستاني، محمد. كتاب الملل والنحل، لندن ١٨٤٦ م، ج ١ صفحة ١٣.

(٢٧) عمر، فاروق، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، بيروت، ١٩٨٠، ص ٩٠.

جلية عند محمد بن المنصور الذي تسمى بالمهدي وقرب إليه فقهاء الزيدية والروافض. ولما اختلف معهم وضربهم مهد لظهور فرقة جديدة عرفت بالعباسية في مقابل الشيعة والروافض حتى أصبح الرافضة يعرفون بأنهم الذين يقولون إن علياً أفضل من العباس. وأن أولاده أفضل من ولد العباس.[٢٨] هنا وجد المأمون ضالته وتبنى أفكار الاعتزال والتشيع ليقوى من قبضته ويعزز سلطته المطلقة. لقد طور الخليفة المأمون مفهوم الخلافة إلى مستوى الإمام العالم وكان حريصاً على الظهور كأمام يتمتع بالسلطات المطلقة ويتصرف كأنه ولى أمر المسلمين. نحن نعرف أنه أول خليفة تسمى رسمياً بالإمام وكتب ذلك على واجهة العملة وتبعه في ذلك الخلفاء من بعده.[٢٩] هنا نجد أن وزيره الفضل بن سهل الذي خطط معه لهذه الظواهر السلطوية سمى نفسه ولى أمر الإمام وصاحب دعوته ، وهذه أدبيات الثورة الزيدية.[٣٠] كما انطلق المأمون من خراسان بعد أن سمى نفسه أمير المؤمنين ليفرض سلطته بحد السيف في بغداد واسطة البلاد الإسلامية ، بعد أن أزاح الذين نازعوه الخلافة كأنه إمام زيدي وكأنهم يمثلون إمامه المفضول. يجب أن لا يخدعنا تقرب المأمون إلى العلويين إذ إنه كان يستغل المبادئ والرموز الشيعية لمصلحته الخاصة لتوطيد حكمه وحكم العباسيين من بعده. لقد ذكرنا أنه اختار على الرضا ولياً للعهد على أساس تكتيكي وليس اعترافا منه بشرعية العلويين أو وراثتهم الولاية السياسية والحكم من بعده. لعل أكبر دليل على ذلك أنه أوصى بالخلافة من بعده لأخيه المعتصم مع أنه لم يغير أفكاره واتجاهاته الشيعية حتى بعد أن طرح الخضرة ولبس السواد من جديد. بل تأكد أكثر من ذي قبل أنه لم يكن يعمل لمصلحة العلويين أو لتسليمهم السلطة كما قد يتبادر إلى الذهن. بل كان مثله مثل المتطلعين للسلطة يستغل الفكر الشيعي ونظرية الإمامة عند الزيدية بصفة خاصة لتعزيز سلطته بشكل مطلق.

عندما تمكن المأمون من الخلافة أحاط نفسه بفقهاء المعتزلة والزيدية والروافض ، ومن عرفوا بالجهمية من المهتمين بالفقه والكلام والفلسفة ، ونصب نفسه إماما للمسلمين يوجه الناس كيفما شاء في أمور الدين والدنيا ، وقال انه كنز العلوم و المعرفة

(٢٨) أبو الفدا ، عماد الدين ، المختصر في تاريخ البشر ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ج ١ ، ص ١٣.

(٢٩) المسعودي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٩٣.

(٣٠) الطبري ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ص ١١١٧.

ووريث النبوة والرسالة المحمدية ، وتحدث عن الهام الأئمة وحقهم الإلهي للاجتهاد وإقامة دين الله الذي استحفظهم إياه وإمضاء حكمه وسننه.[٣١]

كان المأمون قد توعد في خطاباته الخاصة بالمحنة - القضاة والعلماء - ورماهم بالضلالة والجهل وأكل الربا وقبول الرشا واتهمهم بأنهم " **أهل السمت الكاذب والتخشّع لغير الله.. المنغوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً ، لسان إبليس النطاق في أوليائه** ".[٣٢] كما أنه وصف عامة المسلمين بالسائمة والرعية وقال : " **إن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوية الرعية وسفلة العامة في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة وضلالة من حقيقة دينية وتوحيدية ، ومن واجب الخلفاء أن يهدوا من زاغ ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يعود بالضياء والبينة على كافتهم** ".[٣٣]

كان المأمون في هجومه على بني أمية ومحاولته تركيز حكمه قد قام بحك أسمائهم من قبة الصخرة في بيت المقدس ، والمسجد الجامع في دمشق وكتب اسمه مكان أسمائهم.[٣٤] كما أنه أعلن تفضيل على بن أبى طالب ليس على أساس النص بخلافته كما يقول غلاة الشيعة ولكن لقدراته الذاتية وما له من سبق في الإسلام وشجاعة وعلم. لكنه لم يلبث أن تبنى أفكار الروافض عندما أعلن تفضيل على بن أبى طالب على الصحابة وسب معاوية بن أبى سفيان في الطرقات وخطب الجمعة[٣٥] كما اشتط في تشيعه وقال بمعتقدات الروافض حتى حاسب قاضي القضاة بشر بن الوليد الكندي وعزله من القضاء لأنه عاقب رجلا سب أبا بكر وعمر.[٣٦] كما أنه سال أحمد بن أبي داؤود قاضى قضاته الجديد عن رأيه في أبى بكر وعمر وعندما أجابه بأنهما إماما حق وصدق قال له :

---

(٣١) الطبري ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ص ١١١٧.

(٣٢) نفسه ج ٣ ، ص ١١١٤.

(٣٣) نفسة ، ج ٣ ، ص ١١١٧.

(٣٤) الخطيب ، مصدر سبق ذكره، ج ٢ ، ص ٣٢٩.

(٣٥) ابن تغرى بردى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٠٣.

(٣٦) اليعقوبي ، أحمد ، تاريخ اليعقوبي ، ١٩٦٤ ، ج ٣ ، ص ٥٧.

" **إنك تستحق القتل** "(٣٧) ، وما لبث أن أضاف إلى تفضيله علياً تكفيره للصحابة. وأقر زواج المتعة في عام ٢١٥هـ / ٨٣٠م حتى قال له القاضي يحيى بن أكثم : " **إنها بمثابة الزنا عند أهل السنة** ".(٣٨) وقام في نفس العام بزيادة التكبير بعد كل صلاة وأمر الجند بذلك. لقد شهدت الفترة من عام ٢١٠هـ / ٨٢٥ م إلى ٢١٨ هـ /٨٣٣ م توتراً شديدا بين الخليفة المأمون وأصحاب الحديث عندما أعلن القول بخلق القرآن وقرر إعادة فدك إلى العلويين التي كان أبو بكر الصديق قد رفض تسليمها لفاطمة الزهراء لأن خطورة مثل هذا الموضوع كحق وراثي تكمن في أنه يعزز دعوى العلويين في وراثة الولاية الدينية والسياسية عن النبي ﷺ. عندما أعلن المأمون القول بخلق القرآن سياسة رسمية للدولة اخذ الناس بالمحنة في ٢١٢هـ / ٨٢٧ م وبشكل أشد في عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م وكان متأثرا بالمعتزلة ومن يشار إليهم بالجهمية. لقد أوضحت في دراسة خاصة بالمحنة أن القول بخلق القرآن قصد منه التقليل من قدسيته وبالتالي إمكان تجاوز أحكامه لتعزيز سلطات الخليفة كحاكم مطلق وتقوية المؤسسات السياسية على حساب المؤسسات الدينية وقادتها من أصحاب الحديث والأثر.(٣٩) لقد كان الهدف والغاية هو تعطيل أحكام القرآن والشرع ودور الحديث والأثر لإطلاق يد الخليفة في الفقه والتشريع وتعزيز سلطته المطلقة.

يكفى أن نذكر هنا أن الخليفة المأمون قال لعلى بن أبى مقاتل أحد علماء الحنفية : " **ألم تقل لي أن أمير المؤمنين يستطيع أن يحلل ويحرم ؟** ".(٤٠) هذا ما حدث في عهد المأمون والخلفاء الذين جاءوا من بعده وساروا في طريقة. ركز المأمون على امتحان القضاة والشهود والعاملين في المحاكم والأجهزة القضائية ، والمشرفين على التركات والأوقاف وأموال اليتامى والقصر ، كأنه أراد السيطرة على هؤلاء الفقهاء وتقليص سلطاتهم المستقلة وأثرهم على المجتمع المسلم. ونجد أن المعتصم والواثق قد واصلا سياسة المأمون وورث المعتصم إدارة المأمون وزراءه من المعتزلة وفى مقدمتهم قاضى القضاة أحمد بن أبى

(٣٧) وكيع ، أخبار القضاة ، ج ٣ ص ٢٩٥.

(٣٨) اليعقوبى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٣٥٢.

(٣٩) Abu –Saq ,M.O. the politics of the Mihna under al-ma mun and his successors, unpuplished phD. Edinburgh, ١٩٧١ chapter٨.p.p١٩٨ f.

(٤٠) الطبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢١١.

داؤود كما قام الواثق بتقريبهم ، ويقال إنه جلس مجلس التعزية لما مات أبو الهذيل العلاف. لقد تشدد المعتصم والواثق من بعده في تطبيق المحنة وامتحان العلماء والفقهاء وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل.

كما وسع الواثق من نطاق المحنة حتى شملت إلى جانب القضاة والفقهاء والمحدثين أئمة المساجد والقراء والمؤذنين ومدرسي الصبيان. وقد قرر تدريس عقيدة خلق القرآن في المدارس ، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي قائد المطوعة لرفضه الإقرار بخلق القرآن وقيامه بانقلاب فاشل ضده.(٤١)

بل حتى الخليفة المتوكل الذي يظن بعض الباحثين أنه قمع المعارضة الشيعية وأظهر السنة قد سار في واقع الأمر في نفس سياسة المأمون كحاكم مطلق وأحاط نفسه بالواقفية واللفظية(٤٢) الذين برروا له نفس السياسات التي أخذها المأمون من منابع الاعتزال والتشيع ويسلط الشاعر على بن الجهم الأضواء على نزعة الإمامة عند المتوكل عندما يصف الروافض بالغباء ، لأنهم يعتقدون أن الإمام مختبئ في شعب رضوى في حين الإمام هو المتوكل الذي له حرس من عشرين ألف تركي مدجج بالسلاح ومستعد بسهام مشرعة.(٤٣)

نخلص إلى أن اتجاهات المأمون الشيعية كانت تهدف إلى تعزيز سلطاته المطلقة كإمام ولم تكن بحال من الأحوال تعاطفا مع الشيعة أو انتصارا لهم كما يظن بعض الدارسين. بل كانت تهدف إلى استغلال مبادئ و مفاهيم الإمامة في الفكر الشيعي عند الزيدية خاصة لمصلحته الخاصة كخليفة. صارت هذه الصورة أكثر وضوحا عندما فرض المأمون المحنة أولا في الكوفة والبصرة في عام ٢١٢هـ / ٢٢٧م ومرة أخرى في بغداد في عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م وتشدد مع الفقهاء وأصحاب الحديث لإخماد صوتهم وإضعاف المؤسسات الدينية لصالح المؤسسات السياسية وسلطاته كإمام وحاكم مطلق.

---

(٤١) الكندي ، أبو عمر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٥١.

(٤٢) الواقفية هم الفقهاء الذين وقفوا في طبيعة القرآن أثناء المحنة ولم يقولوا مخلوق أو غير مخلوق واللفظية هم الذين قالوا اللفظ بالقرآن مخلوق وليس القرآن نفسه. انظر Abusaq , op-cit., chapter ٧, P.P. ١٧٠-١٩٨

(٤٣) ابو الفدا ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤١.